

ماركيز

الجزء الأوَّل

الدكتور مزوار محمد سعيد

فتح عينيْه فشاهد سقف غرفته المقشَّر بسبب الرطوبة التي يبعثها نحوه ذلك الصهريج المهترئ والموضوع على سطح بيت والده – نصره الله – فرغم جمال طلاء غرفته الأبيض المكسَّر (Le blanc cassé)، إلاَّ أنَّ الإنسان على أرض القراصنة لا يمكن أن يشاهد منظرا دون أن تتدخَّل طبيعة القرصان المتعجرفة لتحطيم جزء منها، فكلُّ ما هو موجود على الجنة ما وراء البحر – أرض القراصنة – هو مشوَّهٌ بشكل متعمَّد، إلاَّ التشويه ذاته، يبقى صافيا نقيا ومؤديا لدوره بشكل رائع وجليل.

تلمَّس وسادته البنية التي تحتوي على صوفٍ عتيق، قبل أن يبعث يده باتجاه هاتفه المحمول ليقرأ التوقيت، إنها الثالثة والنصف فجرا، وهو لن يرجع إلى النوم حتما، هي عادته منذ تلك الليالي التي قضاها في التحضير لشهادة البكالوريا، هذا الوحش الكاسر الذي يصارعه كلُّ قرصان حتى النهاية، ولمدَّة سنة دراسية كاملة، ويوم بزوغ النتائج كبزوغ شمس الأمم، ينجح بعض المترشحين في الامتحان، بينما يتلقى القرصان الفاشل في اجتياز هذه العقبة التاريخية خلال حياته، كلَّ أنواع الشتم، الهمز واللمز حتى يصل إلى أحد الحلول: إمَّا الجنون أو الاستسلام.

أخذ نَفَسًا عميقا، وراح يقرأ عبارات مختلفة المصادر على منصات التواصل الاجتماعي، وبألسنٍ كثيرة، العربية التي يعشقها حدَّ الهيام، الفرنسية التي نبتت بجانبه رغما عنه كما تنبت الطفيليات والانجليزية التي تفتح له الأبواب كلَّما فكَّر في تلك العوالم خلف البحار والمحيطات، وسرعان ما سئم من الهاتف وما حوى؛ فأطلق صوتا خافتا قريبh أكثر من الأنين من قربه من المناجاة، سحب غطاءه القطني ذا اللون الأسود – وهو هدية من جدَّته (أمُّ أبيه) رحمها الله – تقلَّب يمينا ويسارا طلبا للدفء، هو في أواخر شهر أكتوبر، مرحلة تفصل الجنة ما وراء البحر بين الحرارة والبرودة، الجوُّ خارج غرفته المطلة على السلالم خريفيٌّ بشكل كامل، متقلب بين الحرارة نهارا والبرودة القارسة ليلا، بعدها استجمع قواه كلَّها، حارب أفكارا غزت ذاكرته محوّلِة سكينته إلى مجلس لمحاسبة ذاته المنهكة بفعل العمل والآمال التي تسكن فؤاده، أعاد رصد عزيمته التي تصل أحيانا إلى درجة الغرور بدل الوقوف عند مستوى الثقة في النَّفس، ليمدَّ يده فينير الغرفة الصغيرة التي يعتبرها عالَمه الخاص، أنارت أنامله ببطء ذلك المصباح الصغير، الموضوع على طاولة صغيرة بجانب السرير الفسيح، والمصنوع من خشب

هش ذا طراز روماني قديم، هذا واضح من هندسة زواياه وزخرفته على أطرافه، والذي يتسع لشخصيْن، لكنَّ القَدَر وضعه وحيدا هناك، فهو لا يزال عازبا رغم تجاوزه لسنِّه الثلاثين، هو عانس بقاموس قراصنة الجنة ما وراء البحر.

سحب احدى أرجله من تحت ذلك الغطاء الناعم، وتركها تنزل إلى الأرض لتسري البرودة في كافة أنحاء جسمه، تململ قليلا وهو يجلس لدقائق ينظر إلى نفسه في المرآة التي تمَّ تثبيتها جيِّدا وبإحكام على واجهة الخزانة الكبيرة على الجانب الأيمن من السرير الواسع، شاهد ماضيه أو مقتطفات منه على تلك المساحة الجميلة والصافية، لكنَّ عيناه لم يعجبه منظرهما، هما تبدوان متورمتيْن بسبب طريقة نومه التي اضطربت منذ سنة اجتيازه لامتحان البكالوريا – هذه الإهانة بقالب امتحان – تفحَّص كافة أنحاء جسمه، أطال تفحص الغرفة التي أنارها بمصباحه الخافت، ثمَّ التفت باتجاه طاولة المصباح، أو طاولة الليل كما يسميها الفرنسيون (La table de nuit)، فوقع نظره على بعض المستلزمات، منها أحباءه من الكتب، أحدها لجبران خليل جبران، الآخر لفريدريش نيتشه، هناك كتاب لفيكتور هوغو ويعتليها المصحف الشريف.

تشجَّع فقام متثاقلا ومشى حتى بلغ النافذة، فتحها بعدما أضاء الغرفة بمصباح يقع في سقفها مصنوع في الولايات المتحدة الأميركية، بحث عن علبة سجائره، أخرج سيجارة ثمَّ قام بإشعالها بلهفة، نفخ الدخان عبر النافذة، ليدرك بعدها بأنَّه على عتبة يوم جديد، بعدها ودون أن يشعر بتلك اللحظة قال محدثا نفسه بصوت واضح: صباح الخير ماركيز! بينما راقب حركة شفاهه التي كانت تمسك بالسيجارة عبر انعكاس وجهه على زجاج النافذة: صباح الخير ماركيز!

إنَّهُ يوم الخميس، اليوم المفضَّل لماركيز من بين أيَّام الأسبوع، هو يلبس أبهى ما لديه في هذا اليوم المميَّز بالنسبة له، يخرج أثناء وقت الاستراحة إلى حانة "الخشب" المجاورة ليشرب بعض كؤوس مِن الويسكي (Whisky) دون أن يثمل طبعا، مدخنا في الوقت ذاته بعض سجائر الغولواز (Gauloises Blonde Bleu)، لكن قبل وصوله إلى ذلك الفردوس الروحي، يمر الأستاذ ماركيز بمكتبة تقع في مقابل مبنى إقامة البنات الجامعية، ليأخذ صحيفته المفضلة ليوم الخميس، هي صحيفة تصدر بالفرنسية، تحت عنوان "الحرية" (Liberté)، فهو يحب هذه الصحيفة بالذات، وهو مرغم على قراءتها رغم صدورها بلغة "العدوِّ" بالنسبة لماركيز، بسبب مقاليْن أساسييْن، يصدران على صفحاتها كلَّ خميس، مقال للكاتب أمين الزاوي، هذا الكاتِب الساذج حدَّ الهستيريا،

ومقال للكاتب الذي يعبد باريس حدَّ القرف، كمال داود؛ والذي يعتبره ماركيز كاتبا مصلوبا على ليَّة خنزير ولِدَ على عتبة الطاحونة الحمراء.

الخميس هو اليوم المفضَّل عند القراصنة كلَّهم ودون استثناء، خاصة المتزوجين منهم، ليلته هي مقدَّسة بوصفها المفضَّلَة للاتصال الجنسي بالنساء، وهو موعد مقدَّسٌ لدى قرصان كماركيز، فرغم أنَّه ليس متزوجا بعد، إلاَّ أنَّه يحلم بهذا الموعد الهام منذ سنِّ المراهقة، لهذا تجده كلَّ خميس، يثمل قليلا بتلك الخمرة المعتَّقة، مدخنا ما يشتهيه من السجائر، ومطلقا لنظراته الخاطفة باتجاه الجامعيات، هؤلاء المراهقات اللائي يرصدهنَّ مجتمع القراصنة كما ترصد المجتمعات الأوربية المومسات والعاهرات سواء بسواء، قبل أن يسمح لنفسه بالانغماس في أفكار الزاوي المتنكِّر إلى اسم أمين والحالم بجائزة نوبل لحد استعداده للتضحية بمؤخرته فداء لذلك، أو كمال الذي يهاجم كلَّ ما هو مسلم بقناع أكثر تطرُّفًا وغلوًّا.

يشربُ ماركيز بعض الكؤوس فتنطلق أساريره وينير وجهه بينما هو جالس في أقصى زاوية في الحانة، تلفُّه سحابة من الضباب الذي يشكّله الدخان الذي يصدر عنه كمدخنة لندنية عريقة، وبين الحين والآخر، يرفع عينيْه تحت قبعته الإيطالية الطراز، ليلقي بنظرات ثاقبة على تلك الراقصة التي تهزّ جسمها على مسرح خشبي صغير نُصِب على الجهة الشمالية لتلك الحانة، إنَّها الأنغام المفضلة لدى ماركيز، أغنية الطفل الضائع (The Lost Boy) للمغني الرائع غراي هولدن (Greg Holden)، دائما ألهمت كلمات هذه الأغنية الحس الإنساني لدى الأستاذ ماركيز، فبمجرَّد سماعها، ها هو يطوي جريدته، ليضعها على الطاولة، يفلت سيجارته من فمه، ويتركها تسقط أرضا، قبل أن يترك قبعته على كرسيِّه، وينتصب واقفا، يسير باتجاه الفتاة التي ترقص بشكل متناغم مع الموسيقى، تلك التي تلبس لباسا اسبانيا عريقا، بشراشف عند الصدر وكافة حوافه، تنتعل حذاء أسود ذا الكعب العالي، وتضع على رأسها من الجهة اليسرى احدى الأزهار، تلك المثبتة بملقط رقيق، بينما جسمها الأبيض ينساب بين أنغام الموسيقى كما تنساب الدلافين بين الأمواج، وفي لحظة خارج الزمن والجغرافيا، ها هو الأستاذ ماركيز يمسك بيد الفتاة وهو يقوم بحركة دائرية شدّت كافة الأنظار إليهما بينما هو يردد:

لذلك انتظرت سنوات طويلة

أحمل ألما خلف دموعي

من أجل أبي، ريثما يجدني كما وعدني

قضيت ذلك الوقت وحيدا،

سنوات كثيرة بلا وطن...

استقبلت الفتاة ماركيز بحركاتها وابتساماتها، ودار بينهما حوار بلا كلام، وما أبلغ الحوار بلا كلمات حينما يصحب الراقصة والراقص على مسرح الحياة، بحيث يعتقد ماركيز بأنَّ الكلمات هي سجون للمعاني التي تأبى العبودية، بل إنَّ هوسه بمحاربة العبيد جعله يكتب بنهم، قتال ثقافي رهيب يخوضه ضد ناشري الأغلال في كلِّ مكان، وهو يرقص غفا عقله تماما، حيث وجد ماركيز الأمان بين ذراعيْ راقصة في حانة، وافتقده على مصطبة المعارف في المدرسة، يا لهول الحياة!

بعد خروج تلاميذه إلى ساحة المدرسة، بقي يراقبهم من فوق، يوجههم أحيانا من مكانه بجانب سارية العَلَم الوطني، وبعد عبور التلاميذ من المطعم لأخذ وجباتهم، وخروجهم من المؤسسة تلك، عاد بخطوات متثاقلة إلى قسمه الذي يسكنه الغبار، كما سكن ولعقود عقولا كثيرة على أرض القراصنة، بهدوء لا نظير له سار بين صفوف الطاولات ذات الخشب المغشوش حتى وصل إلى المشجب، نزع مئزره بلطف مبالغ فيه، ثم استدار ناحية آخر نافذة على يساره، فتحها، حدَّق بعيدا في الأرجاء التي تنتشر فيها المنازل الذي يكسوها اللون الأحمر، لون البؤس، وسمح لنظراته أن تعبر الوادي الذي صار طريقا بسبب فساد مسؤولي القراصنة، الذين سمحوا للمافيا المالية بالانقضاض عليه وتحويله إلى مشاريع سكنية للطبقة الفقيرة، معرضين الكثير من الأبرياء لخطر الإبادة غرقا، في حال رحل الجفاف عن "الجنة ما وراء البحر" وعادت سنوات "الخير والْخمير".

أشعل سيجارة، وسمح لنفسه بنفخ الدخان عبر تلك النافذة، لتعبر عقله الكثير من الأفكار، أهمها ذلك السؤال الجوهري الذي يرافقه منذ دخوله هذه المؤسسة الصغيرة التي تعبِّر عن عمق ثقافة القراصنة، فصار ماركيز بعدها يُقرن اسمه بلقب أستاذ، معلِّم، الشيخ... الخ، وطبعا هو يعتبر هذه الألقاب مخدرات للضمير ووقودا للغرور الذي يصيب القرصان بسبب تعطُّشه للمجد، فتجده يقنع ذاته بواسطة هذه الكلمات الكاذبة بمدى عظمته التي لا يراها سواه.

ما الذي يفعله هنا؟ صحيح أنَّه يجهد نفسه ليزرع بعض البذور الجميلة في نفسيات هؤلاء الصغار، لكنَّه لا يستطيع نسيان ذلك الظلم الذي عانى منه بسبب تلك الضربة التي تلقاها من جامعة القراصنة، وبعيدا عن ادعائه الاجتهاد في تقديم دروس لهؤلاء – أبناء القراصنة – فهُم في آخر المطاف سيصبحون قراصنة كغيرهم، بعضهم يأكل البعض الآخر، يخضعون كلهم ودون استثناء لقانون "الأقوى يأكل القوي" بينما الضعيف مكانه في اللا-تعيين أصلا، لأنَّ الأستاذ ماركيز مقتنع بعد تجارب كثيرة امتدت لسنوات في التدريس بأنَّ المنظومة "التعليمية" على أرض القراصنة مصممة بشكل متقن بواسطة عقول تخدم العدو، والغرض منها إنتاج أجيال على شاكلة الساذج "أمين الزاوي" أو الذليل "كمال داود" أو ربما أبشع بكثير.

وجد السيجارة قد شارفت على النهاية، فرمى بعقبها من تلك النافذة، ثمَّ عاد إلى مكتبه بخطوات متوازنة وبشكل أكثر هدوء، جلس الأستاذ ماركيز يقرأ كتاب "العواصف" لأمير نيويورك جبران خليل جبران، قرأ جزء منه لكنَّ الجوع تمكَّن منه، فهرع باتجاه الخزانة الخشبية فأخرج القليل من الخبز، وعلبة تصبير سمك التونة، ليجلس إلى طاولة من الطاولات المتناثرة أمامه، ثمَّ أكل بنهم وبسرعة، نظَّف المكان بشكل محترف، أخذ كأسا من الماء من قارورة وضعها سابقا في احدى زوايا ذلك القسم، ليعود بعدها إلى مكتبه الخشبي البني اللون، جلس مسترخيا، ورائحة السمك تحوم حوله، نزع حذاءه الأبيض واحتفظ بجواربه على قدميْه، ثمَّ أغرق نفسه في قراءة العواصف.

يرى الأستاذ ماركيز في التدريس كعمل ضرورة لا اختيار، فالبطالة في "الجنَّة ما وراء البحر" قد بلغت أرقامها حدودا لا سبيل لتحمّلها، كما أنَّه لم يجد مكانا يعمل فيه سوى تلك المؤسسة البعيدة عن مقر سكناه، والبائسة بمحيطها العفن، إضافة إلى هذا فهو بحاجة إلى المال والذهاب كما الإياب إلى ومِن تلك البناية، حتى يوهم مجتمع القراصنة بأنَّه في أفضل الأحوال، لربما يسكِت بعض الأفكار الحاقدة.

الأستاذ ماركيز يعلم بأنَّه لن يبقَ في التدريس، وحدسه الذي لطالما حمله إلى فضاءات ومغامرات كثيرة، يحدِّثه بأنَّ الوضعية التي رسمتها عقول باريسية واجتهد في تنفيذها بعض المنافقين من كبار القراصنة على أرض "الجنَّة ما وراء البحر" حتى تبقيَ كلَّ قرصان مِن جيل ماركيز برصنه، لن تكبِّل عقلا متقدا وعزيمة أكثر صلابة كعقل وعزيمة الأستاذ ماركيز، حتى ولو كان ذلك الرصن من أجود ما يكون.

قاد ماركيز سيارته باتجاه احدى المطاعم الفاخرة في مدينة الفن والتاريخ، ركنها بصعوبة لأنَّ الشارع الذي يقع فيه ذلك المطعم هو شارع فرعي ضيِّق، لأنَّه عبارة عن ملجأ للعشَّاق الذين تحرمهم أرض القراصنة مِن كافة الأماكن حتى تضيق عليهم السماء قبل الأرض بحبهم، لطالما اعتبرت "الجنَّة ما وراء البحر" الحبَّ جريمة والعشاق مجرمين في حقِّ الحياة والتقاليد، فهي قد تسامح السارق، الخائن وقد تغفر للقاتل، لكنها لا تسامح أبدا قبلات المحبين وأحضانهم.

ركن ماركيز السيارة بصعوبة، ودخل باحثا عن صوفيا التي انتظرته بشغف هناك، مضت عدَّة أشهر على انفصالهما، رغم أنَّ علاقتهما قد استمرَّت لأعوام، وبمجرَّد أن لمحته يدخل من الباب ويقف في وسط قاعة المطعم قبالة خشبة العازفين، حتى قامت إليه ملوحة لترشده إلى طاولتها، وبالفعل سار ماركيز وهو يحبس أشواقه إليها بين الطاولات، وبمجرَّد أن وقف بجانبها حتى ارتمت صوفيا بين احضانه، وراحت تقبِّله بحرارة كما كانت تفعل في الأيَّام الخوالي، تمالك نفسه واستعاد بسرعة دور ماركيز المُحترَم، قبل أن يصدَّها طالبا منها المعذرة.

جلس إلى الطاولة بهدوئه المعهود، وجلست على الطرف الآخر، وهي تلتهمه بعينيْها الأندلسيتيْن، محاولة رمي سهام الأشواق لإصابة كافة نواحي حضوره، فهي لطالما بقيت تتلوى فوق جمر الشوق إلى ذلك السكون الذي يميِّز حبيبها ماركيز، والذي استعملته لسنوات لأجل الاستكانة إليه، لأنَّه يبعث في عمقها شعورا بالأمان، ذلك الشعور الذي يكفل علاقات المحبين حتى نهاية الحياة، هي كانت تعرف في قرارة نفسها بأنَّها خسرته، خسرت رجُلاً كان وفيا لها حتى النهاية التي دفعته إليها مضطرة.

سألته عن حاله، عن حياته، لكنه اكتفى بإجابات مقتضبة، قبل أن يقترح عليها نقل موعدهما إلى بيته الذي علمت منه فجأة أنَّه قريب من هناك، بلعت ريقا بصعوبة كأنَّها تبلع سكينا حادا، قبل أن توافق متسائلة: هل استأجرت بيتا في هذا الحيِّ الراقي؟ لابد أنَّ الايجار في هكذا أحياء باهظ الثمن؟ سعره يصل إلى عنان السماء حتما.

ماركيز: هو بيتي، لقد اشتريته قبل زواجي بشهريْن!

- تزوج إذن؟ بهذه السرعة تزوج، فلما قبِل الحضور إلى موعدهما؟

أضافت صوفيا وهي تحبس صراخا استولى على كيانها: وهل تقبل زوجتك بحضوري إلى بيتكم؟ هذا غير معقول!

ابتسم ماركيز كعادته في هذه المواقف بسلاسة، قبل أن يجيب قائلا: هي ليست مِن القراصنة حتى ترفض، طبعا ستكون سعيدة بصداقتكِ لو رغبت في الأمر.

آه! هي أجنبية إذن... هكذا رنَّ صوت ما بداخل صوفيا.

لكن ماركيز أضاف قائلا: لقد التقيتُ بها أثناء زيارتي لكاليفورنيا، وقد وافقت على الزواج بي بعد أسبوع فقط مِن تعارفنا، لهذا سارت كلُّ الأمور بسرعة، حتى أنا لا أجد لها تفسيرا، هؤلاء الأمريكيات يتصرَّفن مثل حركة المؤشرات في بورصة وول ستريت، سريعات في اقتناص الفرص بشكل مدهش!

ما كان أمامها أن ترفض العرض، لقد أغوت صوفيا المعروفة بفضولها القهري فكرة التعرُّف على زوجة ماركيز لحدَّ أنها سألته مجددا وهي تحت تخدير تام: هل نطلب سيارة أجرة للوصول إلى البيت؟ أم أنَّ المنزل قريب، يجعلنا نصل إليه فقط سيرا على الأقدام!

عاد ماركيز ثانية للابتسام بمكر، وهو الذي يعرف صوفيا أكثر مما تعرف هي نفسها قبل أن يحمل قبعته ذات الطراز الإيطالي ويمسكها من يديها بحركة سحرية، ثم همس لها بصوت خافت يكاد لا يُسمع: إنَّ سيارتي في الخارج، وهي حتما رهن إشارتك وتحت طلبك.

لم تقاوم صوفيا هول الصدمة، بل استسلمت لها بسهولة، بدا لها أنَّ الصبي ماركيز الذي رمت بمشاعره على قارعة الحياة، بل ذلك الفتى الذي طلبت موعدا معه لتستعرض أمامه ما كانت تعتبره إنجازات حققتها بغيابه، قد صار رَجُلاً كاملا فجأة، وها هو يستغل الموعد ذاته ليشعرها بمدى حجم الخطأ الذي ارتكبته عندما أغلقت باب قلبها في وجهه، وبين زحام الأفكار، عاد ذلك الصوت من جديد ليذكرها بآخر رسالة نصية وصلت هاتفها منه قبل أشهر، تلك التي تضمنت كلمتيْن فقط: سوف تندمين.

أخذ ماركيز صوفيا إلى سيارة فاخرة، وطلب منها الركوب فاتحا لها احدى أبوابها، ففعلت وهي في قمة الغرابة، بعدها جلس خلف المقود وأدار المحرك فابتعثت من المذياع أغنيته المفضلة، لينطلق بخفة بين السيارات والشوارع المختلفة، وإذا به يدور باتجاه بيت كبير تتقدَّمه مساحة خضراء وبوابة خشبية عتيقة، دقَّ ماركيز جرس السيارة ففتحت البوابة دون تأخير، كاشفة عن حديقة رائعة ومرتبة بشكل دقيق، سار ماركيز بسيارته بين صفيْن من الأشجار وصولا إلى ساحة رملية، وقبل أن يركن السيارة في

احدى زوايا ما يشبه موقف سيارات فاخرة، حتى بادرت صوفيا بالسؤال: هذه سيارات الجيران؟ فأجابها ماركيز بهمس: هي سياراتي فقط، وراح يستعرضها، احداها للعمل، الثانية للتنزه، أخرى للطوارئ، وهناك أخرى للصيد بينما كانت هناك واحدة صغيرة ذات سقف متحرك، قال ماركيز أنها مخصصة لزيارة الشاطئ في أيام القيظ.

نزلا من السيارة وسارا باتجاه البوابة الصغيرة الزرقاء – لون ماركيز المفضل – والمزينة بحواشي على الطريقة الرومانية، وسرعان ما فتحت احدى النساء المتقدمات في السن الباب، وها هي تحتضن ماركيز قائلة: سيدي، يا بني ماركيز، شكرا جزيلا لك على كرمك، لقد فرح ابن أخي بالهدية كثيرا، ودعا لك بالتوفيق والسداد طول تلك الليلة، قبل أن تلتفت إلى صوفيا متعجبة، أهلا يا ابنتي، نحن نعيش في ظل السيِّد ماركيز، وأنا اعتبره أحد أبنائي، كما أنَّه لم يقصِّر أبدا في كلِّ ما يخصنا، هو حاضر بهداياه وعطاياه في كافة المناسبات، والدليل أنه أهدى رحلة مدفوعة التكاليف لابن أخي بمناسبة زواج هذا الأخير إلى تركيا، كم فرح العروسان بها، يا الله!

- قبَّلت العجوز صوفيا ثلاثة قبلات على وجنتيْها بعدما افلتت ماركيز من حضنها، ثم دعتها للدخول.

دخلت صوفيا إلى ما بدا لها قصرا، وراحت تحاول تفحص كلَّ ما يقع عليه نظرها، بينما ماركيز قد سار أمامها نحو قاعة كبيرة تتوسط مساحتها الواسعة طاولة كبيرة للطعام، وتبعتهما الخادمة، طلب ماركيز من السيدة رعاية ضيفته، فوافقت المرأة بكثير من الامتنان، ثم التفت نحو صوفيا قائلا، سأعود بعد خمس دقائق، أرجو أن تعتبري البيت بيتك.

لم تحرِّك صوفيا ساكنا، بل بقيت مثبتة في مكانها من هول ما وجدت نفسها فيه، تملكتها الدهشة بشكل كامل، خرج ماركيز وسار باتجاه مساحة مجاورة كان يفصل بينها وبين غرفة الطعام جدار زجاجي سميك، بعدها راح يقترب ماركيز من مسبح كبير، وهو يتمتم ويبتسم، قاطعت الخادمة تأملات صوفيا قائلة: إنها السيدة جاكلين، هي تسبح في هذا الوقت كل يوم، وهي سباحة ماهرة فعلا، تعشق السباحة كما يعشق السيد ماركيز الصيد، وقد اضطر السيِّد ماركيز بعد انتقالهما إلى هذا البيت لهدم كافة الغرف التي كانت موجودة في الطابق الأرضي حتى يخصص لها مساحة لمسبحها، مبقيا فقط على غرفة مكتبه، غرفة الطعام والمطبخ، ثم اقترحت عليها شرب كوب عصير.

وافقت صوفيا على شرب العصير ليس حبا في العصير وإنَّما استجابة إلى رغبة قوية بداخلها لمواصلة مراقبة حركات ماركيز وجاكلين، فانصرفت الخادمة بسرعة البرق، بينما صوفيا وقفت من مكانها حتى تدقق النظر في جاكلين التي خرجت من المسبح بثياب السباحة، لتحتضن ماركيز دون أن تعير انتباه لتبليلها قميصه الأبيض الزاهي، كانت فتاة شقراء، شعرها أصفر لدرجة البياض، ممشوقة القوام، متوسطة الطول، هكذا بدا لصوفيا الأمر بالمقارنة بطول ماركيز، لها عينان زرقاوان بلون البحر، وسرعان ما انهالت على ماركيز بقبلات وأحضان وكأنَّها تفعل ذلك للمرة الأولى في حياتهما، سرت في صوفيا قشعريرة مخدرة جمَّدت الدماء في عروقها لما شاهدته من انسجام بين ماركيز وجاكلين، حبست صوتا أراد الخروج على شكل صرخة تعلم بها المدينة كلها بمصابها، بخسارتها، لكنها لم تقدر على فعل ذلك، فالتزمت الصمت، صمت كصمت الموتى، فأحيانا يندم المرء على قرارات يتخذها في لحظات غروره، يتحمَّل حمل ذنوبها بقية حياته، هذا ما فكرت به صوفيا وقتئذ.

صوت اصطفاق الأبواب أيقظ ماركيز بغتة، فوجد نفسه في بركة من العرق، نبض قلبه متسارع بشكل كبير، وتنفسه متقطع، حاول فهم ما يحدث من حوله بادئ ذي بدء، قبل أن ينقلب إلى الجهة الأخرى، تحت صوت الرياح الخريفية والجو الغاضب، لقد كانت أصوات الأشجار التي كانت أغصانها تتلاطم، مشكلة مع أصوات الأبواب وبعض الخردوات في الشارع تشكِّل سنفونية غريبة، تزرع في الجبناء الرعب، وتوقظ في النبلاء الأنس والمواساة، "لقد طار النوم من عيني"، جالت هذه العبارة في ذهن ماركيز، فرغب بالتدخين رغم وحشة المكان، نفض عن ذاته كلَّ ما كان يؤرقه، أشعل نورا خفيفا بجانب سريره، ثمَّ تحرَّك نحو النافذة المطلة على السلالم ليشعل احدى سجائره، ومع النفخة الأولى تذكّر صوفيا، يا له مِن حُلُم!

نعم؛ لقد كان حلما، كلُّ ما رآه كان أمنيات ازدحمت في ذهنه خلال نومه في هذه الليلة الصاخبة، ولكن: أين هي الآن؟ وكيف حالها؟

صوفيا هي قصة عابرة بالنسبة لماركيز، قصة من مجموع الكثير من القصص في حياته، التي انتهت جميعها بالانفصال، فهو رحَّالة رومانسي، لا يقف عند فتاة واحدة، ولا تلهمه امرأة واحدة مدى الحياة، هو كالنحلة يجمع رحيق الرجولة من بستان النساء على اختلاف أجناسهنَّ وأعراقهنَّ، هذه هي فلسفته باتجاه الطرف الآخر من النوع البشري.

تأمَّل لبعض الوقت ما يدخنه، ثمَّ تذكَّر موعده التاريخي لهذه الليلة، هي ليلة الفاتح من نوفمبر، وهي ليلة مدهشة بالنسبة إليه، لقد شهدت قبل سنوات انطلاقة حرب التحرير ضدَّ العدوِّ باريس – فِرنسا، وكانت سببا في استقلال أرض القراصنة عن التسلُّط الأوربي الرهيب.

ماركيز يشعر بهيبة هذه المناسبات، رغم أنَّ جيلا كاملا من القراصنة، جيله هو، يعتبر هذه الأحداث مجرَّد قصص شعبية لا تغيِّر في واقع الحال بأيِّ شيء، فما جدوى الخشوع أمام تضحيات شهداء – بإذن الله بينما الواقع يشهد ارتفاعا جنونيا للأسعار، انهيارا كاملا في كافة ميادين الحياة وضياع حتمي للثقافة أمام هذه الموجة العالية التي تجرف كلَّ ما هو جيِّد على أرض القراصنة؟ لهذا فإنَّ ماركيز يبدو كنبي في قومه، يحنُّ للمجد الذي صنع نصفه الأسلاف بتحريرهم للأرض، وهو يرى أنَّ على الأجيال المتعاقبة أن تكمل الحرب حتى النهاية، حرب تحرير الجنة ما وراء البحر، حتى يستقل الشعب الذي بقي تابعا وخاضعا لسحر باريس حتى يومنا هذا.

بالتعبير التقليدي لا يزال ماركيز وطنيا، رغم انبهاره بقوة الغرب واندفاعه نحو عمق الشرق، لا يزال قرصانا يصارع على الجبهة الفكرية، لعلَّه يساهم في بناء ثروة روحية لمجتمع القراصنة، أو تجمُّع القراصنة – لا يهم؛ في هكذا مناسبة يتضاعف الألم الذي ينهش ماركيز من الداخل، ألم الوطن كألم الرأس ما بعد شرب الويسكي بلا ماء أو قطع الثلج، يجرف ماركيز نحو الاستسلام للواقع البيولوجي/السياسي وحتى الثقافي لما هو يعيشه بمرارة.

ينهي ماركيز التدخين، ويعود إلى فراشه، فجأة! يسمع صوت البارود، ويدوي بعده النشيد الوطني الذي تعزفه احدى الفرق العسكرية في ساحة الشهداء التي تبعد عن بيت عائلة ماركيز بحوالي عشر دقائق مشيا على الأقدام، إنها الساعة صفر لثورة بدأت في خمسينات القرن العشرين ولا تزال مستمرة حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، صحيح أنَّ ماركيز يعلم بالتغيرات التي حدثت خلال هذه الفترة، كونه قارئا شرها لكتب التاريخ والفلسفة، لكنَّه مؤمن من ناحية أخرى بأنَّ الشعوب هي من تنتصر في آخر المطاف على حكَّامها المستبدين، وما لم تقدر باريس على نشره في الجنة ما وراء البحر رغم كلِّ إجرامها ومكائدها الماكرة، فلن تقدر على تحقيق هذه المهمة حفنة من لقطاء باريس أيضا.

- بعدها عاد ماركيز للنوم، وقد نسي أن يطفئ ذلك النور الخافت الذي اشعله بجانب سريره.

يكره القراصنة المثقَّف أكثر من كره النور للظلام، يمقتونه بشكل كامل، يزعجونه ويبذلون كلَّ ما بوسعهم لإيذائه معنويا ولو استطاعوا ماديا أيضا، وذلك الكره هو نتيجة خواء نفسي عميق تغلغل شيئا فشيئا في ذواتهم العليلة، هذا ما يراه ماركيز عندما يسير كلَّ صباح على شوارع بلدته الغارقة في الجهالة والكراهية، يرى هذا الشرر يتطاير من عيون حاقدة عليه أينما يولي وجهه.

استيقظ ماركيز هذا اليوم على غير عادته متأخرا، لأنَّه أعاد إطفاء منبه هاتفه الجوَّال قبل أن يتابع نومه، إلى أن سمع باب الرواق يُفتح من طرف والده صدفة، كان موعد استيقاظه قد تجاوز التوقيت الدقيق بعشر دقائق، لكنَّ تلك الدقائق القليلة جعلته يدخل في صراع بهيمي مع سكان بلدته الرثة من أجل الظفر بمقعد على حافلة قد أتت من القرون الغابرة، كبداية أزمة مستمرة منذ استقلال الجنة ما وراء البحر عن المجرمة باريس، وبعدما تمكَّن من الصعود، ها هو يكتشف بأنَّ سجائره قد سرقت خلال تلك الزحمة اليومية، لهذا اضطر ماركيز أن يبقى صامتا طيلة الطريق في اتجاه عمله.

نزل من تلك الحافلة الرديئة بركابها قبل معدنها، بحث عن أقرب كشك في مبنى المحطة البرية التي تقع ضمن بنايات لؤلؤة بلاد القراصنة، وجد واحدا يديره شخص لا يتحدَّث لهجته، لكنَّ ماركيز لم يعره الانتباه الكافي، لأنَّه كان يحاول الوصول إلى اقتناء احدى علب السجائر فقط، ولم يذق طعم الارتياح حتى وضع أولى سجائره ذلك اليوم بين شفتيْه وراح يدخِّن دون هوادة.

جميع القراصنة يكرهون القراصنة جميعهم، بلا مبرر مقنع، بل إنَّ الاقتناع والعمل على اقناع القرصان بأيِّ أمر حتى ولو كان تافه هو مضيعة للجهد والوقت، هذا ما خطر ببال ماركيز وهو يشاهد هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ركابا وهُم يعبرون أمامه تلك البوابات باتجاه عربات يسمونها جزافا بالحافلات، بينما ماركيز لطالما سماها بالمقابر، فهي تأكل من وقت الإنسان الكثير، ومن أعصابه ما هو أكثر من المتوقع، لكون الساهرين عليها هُم أغبى الناس وأكثرهم كرها للمسافرين على اختلاف طباعهم ووجهاتهم.

بعد آخر شهقة للدخان من تلك السجائر الممتعة، رمى ماركيز بعقب تلك السيجارة، ولوَّح لإحدى سيارات الأجرة التي تعمل بنظام الأجرة الجماعية، في حين أنَّ سائقها

يأخذ أجرة خاصة عن كلِّ واحد من ورادها، بالمختصر هي سيارة تحمل الكثير من الزبائن دفعة واحدة ليدفع كل واحد منهم ثمن خدمات من المفروض أنها خاصة به وحده، وهذا يضاف إلى عجائب أرض الجنة ما وراء البحر، أين ينام المنطق ويقضم الضمير أصابعه بلا توقُّف.

دار حوار ما بين ماركيز وسائق الأجرة حول مواضيع مختلفة، كان السائق يشتكي من كلِّ شيء، من زحمة السير، من أسعار البطاطا، من غلاء المعيشة، من عبثية البناء وعشوائية البنايات وصولا إلى الطرقات المهترئة، وكان ماركيز يعلم بأنَّ هذا الحديث لم يتغيَّر أيضا منذ الأجداد والدليل أنَّ الأحفاد هُم أيضا يلوكون الكلمات ذاتها وفق السياقات عينها.

وصل ماركيز إلى المدرسة، فنزل من سيارة الأجرة بعدما قدَّم ثمنا سخيا للسائق فودَّعه بلطف، ثمَّ أشعل سيجارة أخرى قبل دخوله عبر تلك البوابة الحديدية الضخمة التي تعبِّر عن حالة المنظومة التعليمية لدى القراصنة منذ بدايتها وإلى غاية نهايتها الحتمية – هذه طبيعة الأشياء – بعدها وقف ماركيز بجانب الباب ليمهل نفسه الوقت الكافي للتلذذ بتلك السيجارة مطلقا نظره ليجول من حوله، فشاهد كل المصائب التي لا تخطر على بال إنسان متجسدة في عالَم لا يزال يكره مثقفيه حدَّ الثمالة.

سار باتجاه المكتبة المقابلة لإقامة البنات الجامعية واقتنى منها جريدة "الجمهورية"، بعدها توجَّه ماركيز نحو حانة "الخشب" لاحتساء كؤوس الويسكي المعتَّق، قرأ بعض المقالات حول ثورة القراصنة ضدَّ باريس المجرمة، وعن كاتِب بيان الفاتح من نوفمبر – رحمه الله – هذا البطل الذي كان خريجا لجامعة القاهرة ويتقن ما بين خمس إلى سبع لغات، ولكنه لم ينجو من أيادي عملاء باريس، ليسلم الروح بعد اعتقاله بأسبوع فقط.

فعل الويسكي فِعلَه في ماركيز، فجعله يتوجَّه إلى المدرسة التي دخلها على عجل، ألقى دروسا على تلاميذه في مادتيْ الرياضيات والتربية العلمية، قبل أن يحمل قبعته ويخرج من مكان عمله باتجاه إحدى المطاعم، وبينما هو يسير وصلت إلى أذنيْه أنغام شعبية فهم فيما بعد بأنَّه بالقرب مِن احدى المنازل التي تستضيف احدى حفلات الأعراس الشعبية، والتي لطالما أحبها ماركيز كثيرا، فهي تعبِّر حسب اعتقاده عن صورة "نفاق الفرح"، فالقرصان أصله منافق في كافة الحالات، حتى في حالات الفرح العارم الذي يجتاحه خلال حياته، اشترى علبة سجائر على عجل، رماها في أحد جيوبه، قبل أن يقرر اتباع الموسيقى إلى أن وصل إلى احدى الأبواب الصدئة، دفعها بلهفة وَإذا به وسط دار

واسعة، بها مجموعة نسوة من كبار السن، يشكلن صفيْن جلوسا، يتقابلن وهن يحملن الطبول على اختلاف أنواعها وأحجامها، وبعضهن يحملن طبولا مصنوعة من الجلود على الطريقة التقليدية، لم يكن ماركيز الرجل الوحيد الذي يدخل ذلك المكان، فعندما استدار وهو يتلفت حوله، وجد حلقات كثيرة مبعثرة على زوايا ذلك المنزل، من رجال وصبية ونساء أيضا، كلُّهم يستمعون ويشاهدون ذلك المشهد الفولكلوري الذي زاده حسنا وجمالا، رقص احداهنَّ بشكل هادئ للغاية، كانت سيِّدة في مقتبل العمر، تلبس جبَّة حمراء تميل للسواد، تضع غطاء على الرأس، حافية القدميْن، وفي احدى أقدامها وضعت خلخالا يصدر رنينا كلَّما ارتجَّ خصرها بين المغنيات، وجهها كان مغبرا وكثير التجاعيد، واضح أثر الزمان على محياها، ولكنَّ الغريب في رقصها أنَّه كان بالنسبة لها كلَّ العالَم، فهي لا ترى سوى نفسها ترقص، غير مبالية بالمحيطين بها، أشعل ماركيز سيجارة واستند على الجدار بظهره، وراح يرصد تلك المرأة بكلِّ ما يملك من انتباه، هي الحياة ترقص أمام عينيْ ماركيز دون أعذار.

استخدمت المرأة الراقصة كافة الحركات من كلِّ الثقافات، وقد أدهشت ماركيز بإلمامها بتلك الحركات التي تعبِّر عن مجتمعات مختلفة، مِن رقصات الأوبرا العريقة في قلب أوربا، إلى التانغو الأميركي الجنوبي مرورا بالسامبا، ووصولا إلى الرقص الشرقي والرقص الأفريقي العريق، كما كانت تتخللها ببعض حركات الفتيات الآسيويات الهادئة بين الحين والآخر، حينما يخفت الغناء من حناجر تلك العجائز، أدرك ماركيز دون عناء بأنَّه أمام فنَّانة ماهرة للغاية، وبسرعة وضع مقارنة بينه وبينها في مجال الأستاذية، فإن كان هو أستاذ فلسفة بامتياز، فهي حتما أستاذة للرقص دون منازع ولا حتى منافس.

تابع العرض حتى آخر لقطاته، كانت الراقصة تتصبب عرقا في جوٍّ بارد من أجواء الخريف القارسة، ومع ذلك فقد دام العرض لساعة ونصف بالتمام والكمال، خلاله قام ماركيز بتدخين علبة سجائر كاملة، فقد كانت كل سيجارة تشعل أختها دون توقف، لأنَّه ببساطة قد أبهر بما قدَّمته الراقصة من مفاتن ملهمة لكلِّ الحاضرين.

بعد نهاية العرض، خرج ماركيز من الدار مباشرة وبسرعة، بعدها عاد إلى المدرسة حيث قدَّم لتلاميذه دروسا في الرياضيات واللسان الاسباني الذي يجيده للغاية، قبل أن يركب الحافلة بصعوبة ومشقة لا مثيل لها ليتمكن من العودة إلى منزل العائلة، حتى أنَّه بقي واقفا عند باب الحافلة هو وشابيْن آخريْن بسبب ضيق المكان وعدم تمكنهم من إيجاد كراسي فارغة، لكنَّ العامل في تلك الحافلة كان قد حجز مكانا لإحدى الفتيات مقابل ابتسامة وشكر لا غير، وهذا ما اكتشفه ماركيز بعد فوات الأوان.

هذا الاكتشاف ذكّر ماركيز ببيت شِعر كتبه نزار قباني والقائل:

كذبت كلُّ امرأة تدَّعي الفقر

وبين فخذيها كنز ثمين

بعدها أطلق ماركيز أفكاره من عقالها، وجال بنظره بين الجبال والوديان، الموجودة على حواف تلك الطريق المتعرجة، وهو يداعب تلك الراقصة في خياله الذي لا ينضب، متذكِّرا تفاصيل حركات قدَمِها التي حملت الخلخال بكلِّ اقتدار.

ترجَّل ماركيز من الحافلة، اشترى علبة سجائر جديدة، أشعل احداها وراح يدخِّنُ كعادته وهو راجع من يوم عمل طويل باتجاه البيت، لكن وفجأة لمح سيارة زوج عمَّته متوقفة أمام الصيدلية، ودون تفكير، سار باتجاهه وألقى عليه التحية، بعدها سأله عن حاله وحال عمته، لكن ذلك الغبي – الذي يبول في سرواله – تجاهل سؤال ماركيز مرتيْن، ففهم هذا الأخير بأنَّ ذلك الغبي – الذي يبول في سرواله – لم يرغب بإخباره عن حال تلك العمَّة المسكينة، التي لم تعش ولو ثانية من حياتها بشكل طبيعي أبدا، فلطالما عانت من خرافات زوجها، وهي الآن تعاني من خرافات أبنائها، لكنَّ ماركيز في عمقه يشفق على حال هؤلاء الفقراء الخبثاء، صحيح أنَّه يكره فقرهم حدَّ الثمالة، لكنه يمقت مكرهم حدَّ الاشمئزاز، فإضافة إلى جهلهم هُم يحقدون على كلِّ شيء، وهنا المفارقة، تلك التي تجعل ماركيز يعرض عن حيواتهم حماية لحياته الشخصية، فالكلاب المصابة بداء الكَلَب لا تُؤتمَن.

أنهى ماركيز التدخين حالما اقترب من البيت، مضغ عقب السيجارة قبل أن يلقي به بعيدا، أخذ نَفَسًا نقيا، ورمى بإحدى قطع الحلوى في فمه، حتى يتسنى له الإبقاء على بعض الحلاوة داخل جسمه بدل مذاق الغولواز الرهيب، بحث عن مفاتيحه ثمَّ فتح الباب لينهي يوما طويلا من الكفاح دفعة واحدة بعد إغلاق الباب الزرقاء خلفه دون تأخُّر.

مرَّت ليلة ماركيز هادئة لا يشوشها أيُّ حدث ما عدى شخيره المتصاعد عبر نافذته السحرية المطلة على السلالم، واستيقظ في موعده ككل يوم عمل، استعد للخروج وراح يسير في شوارع بلدته البائسة/اليائسة حتى بلغ شارع توقف الحافلات، ركب احداها بهدوء نادر، وتوجَّه نحو مقر عمله، قبل أن يراوده ألم في رأسه راح يشتد، وهذا ما دفعه للمرور بتلك الحانة لأخذ بعض كؤوس الويسكي المعتَّق.

ماركيز يشرب في كلِّ الأوقات، خاصة أثناء النهار، صحيح أنَّه لا يشرب لدرجة الثمالة، خاصة أيَّام العمل، لكنَّ عادة شرب المشروبات الروحية تلازمه دائما وأبدا، بعدها دخل المدرسة، حضر رفع العلم الوطني لبلاد القراصنة، ودخل خلف صفِّ تلاميذه القسم، قدَّم دروسا في التعبير الكتابي لمادة اللسان الإسباني، ودرسًا في التاريخ، تحدَّث خلاله عن نابليون بونابرت، بعدها خطر بباله كتاب "مائة سنة من العزلة"، لهذا بعد خروجه من المؤسسة أثناء راحة الغداء، توجَّه مباشرة نحو مكتبة "الشمس" واشترى الكتاب إضافة لكتاب النبي لجبران خليل جبران باللسان الفرنسي، ومسبحتيْن زرقاء، عاد إلى المدرسة قبل موعد دخول التلاميذ بقليل، فوجد المدير ينتظره ليعلمه بأنَّ من واجبه تفعيل حساب الأستاذ على موقع المدرسة الالكتروني، حتى يتسنى له إدخال نقاط التلاميذ لاختبار الفصل الأوَّل لهذه السنة الدراسية بشكل مباشر، ودون تأخير صعد ماركيز السلالم باتجاه القسم.

أنهى قراءة ما بقي له من صفحات كتاب العواصف لجبران خليل جبران، ثمَّ عمل على إدخال التلاميذ إلى القسم بعد مرورهم بالمطعم وأخذهم لوجباتهم، ليقدِّم الدروس للفوج الثاني ويخرج مسرعا نحو حافلة العودة.

اتخذ ماركيز مكانا له في احدى زوايا الحافلة، وما لبث أن جلست بجانبه احدى الفتيات "المتدينات"، أراد ماركيز أن يترك لها المكان الكافي فقام بتحريك إحدى قدميه، وكما تبيَّن له فيما بعد، فقد توجست الفتاة من هذه الحركة، وراحت تزعجه كما تفعل الكثير من النساء على أرض الجنة ما وراء البحر، لكنَّه سرعان ما تنبه لهذه القضية، فحاول أن يظهر بجلباب الناسك المسكين، لهذا لجأ ماركيز إلى تلك المسبحة الزرقاء، أخرجها من جيبه وراح يذكر المسيح حتى وصوله إلى محطته الأخيرة أمام تعجُّب الفتاة وزميلتها... كم أنتَ ماكر يا ماركيز! لكنك لا تزال تلميذا في هذا المجال أمام إناث القراصنة.

تأمَّل ماركيز لحيته السوداء جيِّدًا، فلاحظ أنَّها تتخللها بعض زغبات من الشيب، أشعل سيجارة وراح يدخِّنُ وهو يفكِّرُ في حالاته النفسية التي تتعب بسبب الكثير من التصرفات اليومية الصادرة عن القراصنة وحياتهم التافهة، أخذ نَفَسًا عميقا للغاية، وشرد ذهنه في اتجاه ما معنى الموسيقى، وما جدوى الرقص!

جلس على طرف سريره الواسع، فتذكَّر ماركيز بعض الحفلات الراقصة في حياته، التي حضرها صدفة، كلُّ شيء يسير وفق الصدفة على أرض الجنَّة ما وراء البحر، إلاَّ ثقافة

البؤس، هي الوحيدة التي تمَّ التخطيط لها بشكل محكم، ثمَّ عمد لقطاء الكولون إلى تنفيذها بشكل أكثر إحكاما.

حفلاتٌ رقص فيها ماركيز بطريقة بهلوانية وهو يُسند سيجارته على أحد أنيابه حتى يضمن عدم سقوطها، وسط حشد مِن القطيع البهيمي لبعض القراصنة، فهؤلاء لا يرقصون حسب رأيه، وإنَّما يتركون أجسامهم تستسلم للمكبوتات الرهيبة والحارقة، تلك التي تنفجر في صورة القفز والركل، الدوران والاهتزاز، تحت عنوان الرقصات والترفيه عن النفس، بينما هي في حقيقتها لغة تعبِّر عن شكوى اليائسين بألسنة الجوارح التي لا تعرف الكذب، لهذا عندما بلغ عقل الأستاذ ماركيز مرحلة النضج، صار يحضر تلك الحفلات الراقصة، وأغلبها على أرض القراصنة هي حفلات زفاف – مِن أجل تعويض العادات السرية الجنسية بعادات حيوانية زوجية فقط – ليجلس في احدى زوايا ذلك السطح، أو تلك الخيمة، مطلقا لنفسه العنان، فيقرأ الكثير مِن حركات القراصنة الراقصين، الذين يصبحون في حالة "الحَضرة" البهيمية بامتياز.

انهى ماركيز تدخين تلك السيجارة، ثمَّ استلقى على فراشه الدافئ في هذا اليوم البارد من احدى أيَّام نوفمبر – الشَّهر المفضل لدى ماركيز – وراح يفكِّر في تلك الحفلات الصاخبة التي يحضر فيها كلُّ شيء ويغيب عنها كلُّ ما يدلُّ عن الاحتفال والابتهاج في الأعياد الوطنية التي تحوَّلت إلى أعياد حيوانية بشكل دقيق، حيث تُنصب الموائد لكبار الرّؤوس مِن حملة الرماح، ليرقصوا ويسكروا حتى الثمالة بأغلى وأفخم المشروبات الروحية، ثمَّ يعاشرون الفاجرات حتى الفجر، ولأيَّام، وكلُّ الفواتير تدفعها صناديق القراصنة البؤساء، الذين لا يعلم معظمهم بأنَّ كبار السلب والنهب هُم أولئك الذين يلبسون النياشين، ويتكلمون بعبارات رنَّانة.

حتى يستتبَّ لحملة الرماح الأمر على أراضي القراصنة، فيقومون باللَّهو والعبث كما يريدون ويشاؤون، قدَّموا خيرات الجنَّة ما وراء البحر لأسيادهم خلف البحر، وصمَّموا على استعباد أبناء القراصنة كلِّهم، ومن أجل تحقيق هذه الغايات، قاموا بذبح وتعذيب أبناء القراصنة واستحياء نسائهم على طريقة بني إسرائيل، بعدها قدَّموا لمَن بقي حيًّا راكعا من القراصنة كؤوسا تحتوي على شراب المذلَّة، وأرغموهم على شربه حتى صار القرصان عَبْدًا طَيِّعًا لهؤلاء المجرمين، بل إنَّه حمل على عاتقه الدّفاع عن مَن يسلبه الحياة حتى آخر لحظاته في هذه الحياة، لأنَّه اعتقد متوهما بأنَّهم هُم وحدهم – حملة الرماح – مَن يقدر على رفع الشَّمس كلَّ صباح، وتقديم له الأنفاس النقية كلَّ لحظة.

لهذا وجد ماركيز نفسه ضدَّ هؤلاء العبيد – وهُم أحقر أنواع وأصناف العبيد قاطبة – عبيد بلغوا مِن الحقارة حدَّ احتقار أنفسهم وأرواحهم لأجل مَن يذلِّهم ضاربين عرض الحائط كافة العقد وفي مقدمتها عقدة ستوكهولم؛ قطَّب ماركيز جبهته واشتعل وجهه احمرارا، وراح يحاول طرد فكرة أنَّه مضطر للتعامل مع هؤلاء العبيد يوميا، فهو يدرِّسُ أبناءهم كلَّ لحظة أساليب العيش بكرامة، آملا أن يصبح أحدهم أو بالأحرى احداهنَّ فتاة أو فتى حرًّا، أو إنسانا طليقا في أدنى تقدير.

لعن ماركيز شيطانه، نهض مِن مكانه الدافئ متثاقلا، استعدَّ بما يستطيع لهذا اليوم الجديد، ثمَّ أغلق باب غرفته وهو كلُّه أمل في يوم يتبخَّر فيه من هذه الأرض التي تعطي ثمارها الطازجة فقط للمجرمين أو المستعبَدين، وكلاهما محتقَر في نظرة ماركيز للحياة، الوفاة والنجاة.